المحاضرة 06: التجربة الروائيّة النسائيّة في الجزائر.

توطئة:

إنّ الحديث عن التجربة الابداعية النسائية الجزائرية يعتريها الكثير من الارتباك والتوجّس؛ ذلك لأنّه مرتبط بخصوصية المجتمع الجزائري، فالكتابة النسائية فضاء رحب يشي بذات الأنثوية في خطاب أدبي إنساني؛ ليكسر حاجز الصّمت والتّهميش الذي عزلها وأقصاها ردحا من الزمن في ظلّ سطوة وجبروت المجتمع الأبوي معبّرة عن معاناتها وتمرّدها عن قواعد المجتمع الأبوي الذي يحتفي بإنتاج الرّجل.

فظهرت الكثير من نتاجات المرأة متحرّرة بل متمرّدة بشكل صارخ على تقاليد وأعراف المجتمع الأبوي، بل تجاوزت الخطوط الحمراء في معالجتها لقضايا تمسّ المرأة الجزائرية، حيث تناولت الثالوث المحرّم (السلطة – الدين – الجنس) في كتاباتها، وقلم الكاتبة المغتربة مليكة مقدم جريء متمرّد على عادات وتقاليد المجتمع الجزائري يروي سيرتها الذاتية ضاربة بقيم مجتمعها عرض الحائط وبه كشفت كل مستور وخفي فيه.

الرواية النسائية العربية:

إنّ المشهد الثّقافي العربي يتداول على أنّ أوّل رواية عربية كانت لمحمد هيكل حسين رواية " زينب " 1914، في حين عدّ النّقاد رواية "حسن العواقب" لزينب فوّاز كأوّل رواية نسائية عربية سنة 1895 ثمّ تلتها لبيبة هاشم التي صدرت لها رواية " قلب الرّجل" سنة 1904 ، وترى بثينة شعبان أنّ أوّل مِن النساء مَن " كتبت الرّواية وناقشت عناصرها بوعي أدبي عميق قبل صدور " رواية زينب " لحسين هيكل بسنوات ثمان" ، لعفيفة كرم -الكاتبة اللبنانية – روايتها الموسومة بـ " بديعة وفؤاد " سنة 1906 وبعدها نشرت سبع روايات .

أمّا المشهد الثّقافي الجزائري يرى أنّ أول رواية جزائرية نسائية هي لزهور ونيسي سنة 1979، لكن أين هي رواية جميلة دباش " ليلى فتاة من الجزائر"سنة 1947؟، وروايتها "عزيزة" سنة 1955؟، وقبلها فاطمة آيت منصور عمروش كتبت سيرتها الذاتية " قصة حياتي" عام 1946؟. هل السبب اللغة الأجنبية الفرنسية التي كتبت بها الروايات؟ وهل الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية لا نعدّها رواية عربية؟؛ بيد أنّ الرواية الجزائرية المكتوبة بقلم فرنسي تعبق بروح وطنية جزائرية وترتكز في بنائها على أرضية الواقع الجزائري وبشخصياتها الجزائرية، وتعبّر عن معاناة الجزائريين من المستعمِر الفرنسي..وغيرها من الموضوعات التّي تمسّ المواطن الجزائري.

في الحقيقة أثير هذا الموضوع موضوع "إشكالية الانتماء في الرواية العربية المكتوبة باللغة الفرنسية" لدى الكثير من النّقاد وقد تحدّث عبد الله ركيبي عن هذا الأدب - المكتوب باللغة الفرنسية - قائلا : « وجملة القول فإنّ الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، قد أوجد لظروف وأسباب في مرحلة معينة، وهو إن كتب بلغة أجنبية، فإنه عبر عن مضمون جزائري وواقع وطني، الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا»، وهناك من النقاد الفرنسيين

من ذهب إلى القول نفسه حينما قدّم لإحدى روايات "كاتب ياسين" مصرّحا بقوله:« يجب علينا أن نعد هذا الكتاب رواية عربية مترجمة إلى اللّغة الفرنسية، لا لأن أبطالها عرب، ولا لأن أحداثها تجري في أرض عربية، ولا لأن مدارها على الآلام التي يتحملها العرب في الجزائر، ولا على الآمال التي تجيش في صدورهم، بل- أولاً وقبل كل شيء -لأن العقل الذي أنجبها عقل عربي له أسلوبه الخاص في كل شيء: في النظر إلى الأمور، في الإحساس بالمشكلات، في معاناة الحياة، بل حتى في تصور الزمان والمكان».

وتكمن أهمية الرّواية الجزائرية المكتوبة باللّغة الفرنسية في إيصال قضايا المجتمع الجزائري للعالم الأوروبي، فقد عرفت الرّواية الجزائرية الفرنسية مرونة في الإنتاج أكثر من الرّواية الجزائرية العربية حيث «نجد أنّه في الفترة الواقعة بين عام 1945م وعام 1964م ظهرت سبع وثلاثون رواية جزائرية مكتوبة باللّغة الفرنسية، وفي الفترة ما بين عام 1965م وعام 1972م صدرت سبع عشرة رواية مكتوبة بالفرنسية، في حين أن الروايات التي كتبت باللغة العربية في تلك الفترة لم تتعد الروايات الثلاث»، إذن هي رواية عربية مكتوبة باللغة الفرنسية، ليس حبا في اللغة الفرنسية ولكن لا يتقنون اللغة العربية لذا جاءت إنتاجاتهم منسوجة بروح عربية أصيلة في أحداثها وفي شخصياتها وحتّى في مكانها وزمانها ولكن في جسد لغوي فرنسي، وقد عبّر عن هذا "كاتب ياسين" بقوله: «إنّ معظم ذكرياتي وإحساساتي وأحلامي ومناجاتي الداخلية تتعلق ببلادي، فمن الطبيعي أن أشعر بها في صيغتها الأولى- أي لغتي الأم العربية، ولكني لا أقدر على إنشائها والتعبير عنها إلا بالفرنسية».

وفي الآونة الأخيرة ساهمت الثّورة الرّقمية في ظهور الكثير من الكاتبات الجزائريات على السّاحة الثّقافية، ولكن الإعلام والنقاد يحتفي بأسماء معينة دون الأخرى، بل منهم من يحصر الأدب النسائي في أحلام مستغانمي وفضيلة فاروق، آسيا جبار..، ويقصون كاتبات ماهرات مبدعات في الأدب كـ زهور ونيسي، وزهرة ديك وعائشة بنور وسامية بن دريس وجميلة طلباوي..وغيرهن، فإنتاجهن لم يعرف اهتمام النقاد بهن كثيرا، بل إنّ الكثير لا يعرف بوجودهن وذلك لعدم احتفاء الإعلام بهن وترويج لنشاطاتهن.

عرفت الكتابة النّسائية السير الذّاتية في إنتاجاتها، فأدب السيرة يعني «حياة إنسان، أو بعض منها، مدوّنة بقلمه، وهو اقتحام للذّات، لكشف حركة النّفس الباطنية ومستوى وعيها، فوراء كلّ أدب ذاتي اعتقاد بأنّ الذّات مستقلة ولكنّها شفافة أمام نظر نفسها...تتطلّب جرأة حقيقية»، أمّا السيرة الرّوائية فهي « كتابة سرديّة مهجّنة»؛ أي تُنتَج عن نوعين سرديين مائزين وهما: السيرة والرّواية، فلا يمكن للمرأة العربية أن تكتب دون أن تضع من بهار الواقع في إنتاجاتها سواء عن أمر يخصّها أو يخصّ محيطها فمن المستحيل أن تنطلق دون الوقوف على أرضية الواقع؛ و يعدّ لجوء المرأة لكتابة السيرة الذّاتية الخاصّة بها مطلب مُلِح «من حيث الرّغبة في نقل إحساس بالذّات»، وفي إيجاد هويّة لها في عالم يراها مخلوقا ضعيفا لا كلمة لها فيه سوى خدمته والانصياع للأوامر، ممّا جعلها تسلك دروبا وعرة تفضي بها إلى نوع من الحرية متسلحة بالقلم الفني البارع في إيصال صوتها للعالم.

كما أنّ الكثير من الكاتبات العربيات حينما سئلن إن كان عملهن أو إنتاجهن سيرة ذاتية تراوغ و تجيب بقولها أنّها امرأة عربية ولها هموما تعالجها، فأعمالهن تنشطر فيها ذواتهن

بل تتوارى خلف الشخصيات لتثبت حقائقا لم يكن لها أن تفصحها لنا بصريح العبارة فهي ترزح تحت أقنعة شتّى سواء بوعي أو دون وعي منها.

فرواية السير الذّاتية لا تتطابق تماما مع الواقع في أحداثها بل تحوي في ثناياها الكثير من التّعديلات والتغييرات والتخييل، ممّا لا يسلم بالضّرورة نسبتها كليا للواقع، فهي بمثابة منظور أو رؤية الكاتب للحياة يعالج فيها قضايا تهمّه وتهمّ أفراد مجتمعه، ونبذ قيما يراها عائقا لحريته وحرية الآخرين «ولا يهم في النّهاية من هذه العملية الانتقالية سوى تماسك البنية النصيّة وهو التّماسك الذي يعوّض تشرذم وتفتّت الذات الكاتبة»، فالمرأة تكتب لتلملم ذاتها بل لتكتسب هويّة لها في مجتمع أبوي يصادر إرادة المرأة ويهمشّها، فقد نجح في «إقناع المرأة بضعفها وعدم القدرة على الإبداع، فغدت أداة قابلة للتّوظيف والتّرميز، والتّشكّل وفق النّظام السّائد... ممّا جعل المرأة كائنا هامشيا تابعا»، تنفّذ أوامر ومتطلبات الرجل دون تذمّر بل دون مراعاة لشعورها كأنّها آلة أو أَمَة تخدم سيّدها لا اعتراض ولا إبداء رأي يخصّها أو يخصّ عائلتها، ومن الصّفات التي يجب على الزوجة أن تتصف بها تلك ما اصطبغت «بمسحة جسدية بحتة ممّا يُفصح عن رؤى الثّقافة للمرأة، فهذه الثّقافة أرادت المرأة أمّا وزوجة ومعشوقة.. وكأنّها رهينة الإنجاب والامتاع»، إذن المرأة أضحت أيقونة للمتعة والإنجاب وخدمة الرجل، أي جسدا بلا رأس (عقل) يحتاج لمتنفّس روحي كالكتابة، ولمّا أدركت المرأة مدى أهميّة التعليم في حياتها تشبّثت به بكل قوّة، وأخذت القلم لتعبّر عن ذاتها ولتثبت وجودها بالكتابة .

المحاضرة 07: مليكة مقدم ورواياتها.

من الكاتبات المهاجرات "مليكة مقدم" كاتبة فذة ذات قلم فني ماهر وجريء، فقد انبرى قلمها لتعرية الواقع، وإبراز للعلن ما تعانيه المرأة الجزائرية من قمع واضطهاد في ظل سطوة الرجل وذلك من خلال سرد جزء من سيرتها الذاتية.

مليكة مقدم كاتبة جزائرية تكتب باللغة الفرنسية ولدت في 5 أكتوبر 1949 في القنادسة ولاية بشار درست طب الكلى في جامعة وهران، انتقلت إلى فرنسا عام 1977، واستقرت بها عام 1979، تخلت عن مهنتها سنة 1985 لتتفرّغ للكتابة، هي

الآن مقيمة في مونبولييي بفرنسا وعلاقاتها مع والدها مقطوعة بسبب تهجمها على الإسلام وإلحادها حيث رفض والدها رؤيتها والتحدث إليها، تدافع عن حقوق المرأة وتنتقد التقاليد العربية والإسلامية.

أمّا الجوائز التّي تحصلّت عليها مليكة مقدم فهي:

- الأكاديمية ليتر1991 Littré عام عن رواية رجال الذين يمشون.
- افريقيا المتوسط عن قرن الجراد، 1992.
- إفريقيا المتوسط عن روية الممنوعة، 1993

أمّا عن أهمّ مؤلفاتها نذكر:

- رواية الرجال الذين يمشون سنة 1990.
- رواية "قرن الجراد" سنة 1992.
- رواية "الممنوعة" سنة 1993.
- رواية أحلام وقتلة سنة 1995.
- رواية "المتمرّدة" سنة 2003 والتي بصدد دراستها.
- رواية "رجالي" سنة 2005.
- رواية " أدين بكلّ شيء للنّسيان" سنة 2008.

وغيرها من الأعمال التي تبثّ فيها سيرتها الذّاتية، بموضوعات صادمة تكشف المستور وتبوح عن المسكوت عنه بجرأة صارخة، ففي الرواية "أدين بكل شيء للنّسيان" تطرقت لمسألة شرب الخمر وتقبيل صديقها لسلمى –الشخصية الرئيسة في الرواية- كل ذلك أمام والدتها، وتطرقت لمسائل سياسية كإهمال السلطات نتج عنه وضعا مزريا لشوارع وهران، ضف إلى ذلك ذكرها لقضايا جنسية فهي تعيش مع صديقها الكافر منذ عشرة أعوام وهم لا يعلمون عن هذا الأمر شيئا، وكشفها عن قضايا زنى المحارم وكذا إثارة قضايا الأطفال غير الشرعيين، حيث كانت شاهدة على جريمة قتل قامت بها أم سلمى وخالتها زهية لتتستر عن الفضيحة والعار الذي سيلحق بعائلتها، وغيرها من القضايا التي تثيرها مليكة مقدم في رواياتها، وتظهرها للعالم ليعرف مدى معاناة المرأة في مجتمع أبوي يجعلها تطرق كل محرّم وتتمرّد على كل الأعراف بسبب القيد الذي فُرِض على المرأة.

هيكل وبنية رواية الممنوعة:

رواية "**الممنوعة**" لمليكة مقدم تقع في 191 صفحة، حيث تركّز فيها على المحرّمات والممنوعات المفروضة على المرأة الجزائرية، فهي تحوي على الكثير من تفاصيل حياة الكاتبة، حاولت فيها مليكة مقدم معالجة واقع المرأة وذلك بإظهار معاناة المرأة في ظلّ المجتمع الأبوي، فقد كتبت " مقدم" سيرتها على خلفية ما يحدث ببلادها في فترة التسعينيات، رغبة منها في الحرية وفي كشف كل مستور متمرّدة على الأعراف والتقاليد التي قمعت وقيدت المرأة وجعلتها أمة خاضعة لسيّدها الرجل، فالكاتبة "مقدم" نسجت روايتها بخيوط الألم والحلم لتقدّم وتبرز ما تكابده المرأة الجزائرية في مجتمع أبوي بحت، تبدأ الروائية

روايتها بارتكازها على الذّاكرة لتعبّر لنا عن مرارة الفراق والألم الذي يكتنف حياة البطلة فقد هربت بجسدها إلى المنفى، ولكنّها لم تفلح في ترك الذّكريات خلفها فقد تلبّستها في منفاها ولم تفارقها أبدا، تقول: «لم أكن أتصوّر أبدا بأنني أستطيع العودة يوما إلى هذه المنطقة ومع ذلك لم أبتعد عنها بشكل نهائي أبدا، كل ما فعلته هو أنّني ألحقت الصّحراء والحزن الشديد إلى جسمي المهجّر وبقيت مجزأة بينهما»، تقرّ سلطانة بأنّها هربت من واقع مرّ ولكنها لم تسلم من ذكرياته في منفاها، لأنها لم تستطع مقاومة الحنين الذّي اجتاحها بقوّة لتقرّر العودة إلى الوطن إثر سماعها بخبر موت صديقها، هذا الخبر الذي أحيا ذاكرة سلطانة فأعادها إلى الصّحراء حيث الألم والقمع لتتفاجأ بأنّ الوطن لم يتغيّر فيه الكثير برغم تراكم السنوات، فلازالت تسوده الهمجية والقمع والنظرة الدونية للمرأة في بعض دوائره وبلدياته. فقد حاولت مليكة مقدم من خلال تناوب الحكي على لسان سلطانة مجاهد وفانسان الفرنسي تعرية الواقع وإبراز محطّات من الحياة التّي تعيشها المرأة هناك وكذا إبراز القلق والخوف من مستقبل غامض مبهم لتنهيها بأمل في التغيّر فبعد تحرّك النساء والتّعبير عن رأيهن تقرّر الابتعاد والتّضامن مع النّساء من بعيد.

من أبرز الدّوافع التي تدفع المرأة للكتابة هو نزع عنها لباس الذّل والخنوع الذي فرضه الرّجل عبر حقب زمنية بعيدة جدا، فهي تريد إيجاد ذاتها وهويتها في مجتمع يراها كائنا ضعيفا، لذا جعلت من سيرها الذاتية أناها محورا لها، وذلك من أجل الحرية، ففي رواية " المتمردة" تقول:" كنت سأموت لو لم ألتجئ إلى الكتابة"، كان يؤلمها وضع الجزائر المؤلم والمحزن في فترة التسعينيات، فكانت الكتابة بمثابة متنفس وعلاج لها؛ تقول عن هذا الأمر: " كنت أعالج نفسي من خلال الكتابة عن الجزائر".

أمّا موقف الرّجل من كتابة المرأة تقول:" الرّجال لا يتحمّلون امرأة تمارس الكتابة، إنّ الأمر قاس بالنّسبة للرّجل، والأمر صعب للجميع"، فالكتابة بالنسبة لها ثورة ضد الثّقافة السّائدة تقول: " إنّها ثورتي الخاصة بي، العلامة أني أصبحت غريبة عن أهلي"، فترى أنّ " القراءة طوال اللّيل والنوم صباحا..يدشّن تحوّل الرّفض إلى المقاومة، يرسّخ من تصميمي على ألاّ أدع نفسي أتحوّل إلى آمة لأخوتي"، إذن الرجل سواء كان أبا أو أخا أو زوجا يرى البنت خادمة له. وتتساءل مليكة عن دوافعها للكتابة فتصرّح قائلة:" هل هذه عادة منّي كمغتربة وكمريضة بالأرق، أن أحكي قصصا وحكايات؟ وهل هذا خوف من أن أضيع؟ هل من أجل تنويم تهديدات المجهول؟ وهل هي طريقة في التواجد على الرّغم من كلّ شيء"، فمليكة صرّحت بالدوافع التي تدفعها للكتابة: الغربة والأرق والخوف من الضّياع وتهديد المجهول لها، والدافع الرّئيس للكتابة هو إثبات وجودها.

فقد حاولت أن تثبت وجودها من خلال التفوّق في الدّراسة إلاّ أنّ والدها يردعها قائلا لها " لا داع لهذا التّعب، فأنت لست ولدا يا ابنتي"، فالمجتمع العربي يفضّل أن يكون له ولدا أكثر من البنت فهي بالنسبة لهم تمثّل العار يجب التخلص منها بسرعة وذلك بتزويجها، ممّا ولّد لدى البنت عقدة الدّونية، بل الأقسى من هذا أن تجد المرأة تلقّن وترضع ابنتها عقدة الدّونية والخضوع للرّجل المتسلّط تقول: " فإنّ أصوات اللّواتي حضرن أثناء الولادة، من الأم والجدة والخالات والعمّات..يكرّرن لتلك الفتيات، باستمرار صدماتهن مع أنفسهن من أجل أن يُدخلن في رؤوسهن الشّعور بالضّعف والدّونية، سمعت هذا الهمس المستسلم وهو

يحكي لي مرّات عديدة عن خيبة ولادتي" أي لم أكن ولدا، وترى مليكة أنّ دعمها لعائلتها ماديا سيجعل والدها يطري عليها قائلا لها:" لقد أصبحت الآن يا ابنتي رجلا!" بل ستشتري شيئا مهما تقول ـ" اشتريت حريتي بفضل تراكم مرتباتي مثل أمة، حريّتي ووحدتي"، وتتحدث مليكة عن فضل الكتابة عليها قائلة:" منذ أن بدأت الكتابة وأنا أمنح نفسي جسديا، لكلّ الانبثاقات، وأحاول أن أصلح نفسي، الكلمات تحمل أحيانا زفيري دون أن أُغشي بصري.."، بل ترى نفسها فتحت "الطريق أمام الأجيال القادمة من فتيات الصّحراء".

من خلال أعمالها الروائيّة نجد أن المرأة الكاتبة تسعى إلى معالجة المجتمع الذّكوري، فهي تراه مجتمعا ظالما لها، فتثير الكثير من القضايا المسكوت عنها لأنّها تعيش القهر والحرمان بوصفها أنثى، بيد أنّ خصوصية إبداع المرأة في الكتابة لم يكن من فراغ بل كان وسيلة لمقاومة الرجل المتسلط سواء كان أبا أو أخا أو زوجا، معلنة أمامه ثورة ضد الثّقافة السّائدة المجحفة لحق المرأة؛ ثقافة أنّ المرأة كائن ضعيف.

*ـعالجت الروائية الكثير من القضايا في المجتمع الجزائري كالتمييز في المعاملة بين الإناث والذّكور، الفقر، الجهل، الظلم، التعليم، ...

*ـ كسر التابو من أجل إبراز القهر والضياع الذي تعانيه المرأة في المجتمع الأبوي.

*ـ وظّفت الكاتبة التّقاليد ليس لتمجيدها بل لتسخر منها وتكتشف زيفها.

*ـتعمد "مقدم" في استخدام الأسلوب المباشر من خلال ضمير المتكلم، وهذا يعبّر عن وعيها بالذات والتّحدّث بحرية وثقة عالية.

*ـتتميز كتابتها بلغة شاعريّة رغم أنّ العمل مترجم إلى اللغة العربية.

*ـبروز صوت مليكة المقاوم والثوري ضدّ أعراف وتقاليد أسرتها وضد مجتمع أبوي بتطرقها لموضوعات التابو، فقد عالجت عدّة قضايا في روايتها كتعليم البنت، النظرة الدونية للمرأة فهي ليست أمة، لها الحق في اختيار الزوج...

*ـ الرغبة في تبرير الذّات أمام القارئ والأسرة والمجتمع، وهذا ما وقفنا عليه من خلال ثورتها على التّقاليد وضدّ الثقافة السائدة التي تجعل من المرأة أمة وخادمة للرّجل المتسلّط.

*ـومن خصائص الكتابة النّسائية لجوء بعضهن للغة أجنبية للتّعبير عن الذّات وذلك لإيصال قضاياها للمجتمع الغربي وهذا ما دأبت عليه الكاتبة المغتربة مليكة مقدم.